طلائعية التنظير النقدي عند عبد الله الركيبي

أ/ محمد الأمين بحري
جامعة محمد خيضر - بسكرة

تتجه هذه المداخلة بالخصوص إلى المجهود التنظيري النقدي للدكتور عبد الله الركيبي في مختلف الأنواع الأدبية السائدة في الأدب الجزائري الذي تناوله في مختلف كتاباته، عرضا ونقدا وتحليلا وتحقيقا، مركزا في كل ذلك على الجانب المنهجي الذي يعد سر كل تجديد و تحديث في مسيرة الفن الأدبي لكل أمة، ولما كان إسهام الرجل لا ينكر في تطوير الأدب الجزائري بداية من نقده المنهجي خاصة في العصر الحديث والمعاصر فقد استحق أن نصنف مجهوداته في التنظير النقدي في خانة الطلائعية لما كان لها من أثر عميق في تأسيس النقد الأدبي الجزائري ودفع عجلته إلى مصاف المدارس النقدية الحديثة.

و قد ركزنا على إبراز نظريته في: أولا- النثر الجزائري وأنواعه، ثانيا- في الشعر الجزائري و تطوره، ثالثا - المدرسة النقدية الخليقة بهذا الأدب والتي نادى الناقد بتأسيسها، رابعا- المنهج النقدي الحديث لدراسة الأدب الجزائري، مشيرين في كل محور إلى ملامح الطلائعية والتحديث في نظرية الركيبي النقدية .

أولا : من أجل نظرية في النثر الجزائري :

لقد كان مشروع قيام مدرسة نقدية جزائرية هاجس عبد الله الركيبي وهو يدرس بنهم المستكشف الغيور فنون النثر الجزائري بادئا بالقصة القصيرة، وما إن شرع في التنقيب والاستكشاف حتى راعه ذلك الإهمال الدراسي الذي حاق بهذا الأدب الغزير وعم جميع الفنون النثرية جراء عزوف الباحثين أو قلتهم، و في كل ذلك ،حرمان لهذا الأدب من مكانته المتوخاة بين آداب الأمم، فبدأ يفكر في إخراج هذا الزخم الإبداعي من مأزق الإهمال الذي طاله، بواسطة منهج كفيل بإخراجه إلى الإقليمية والعالمية التي تليق بقامته، مستهلا مشروعة العظيم بوضع نظرية للأنواع االنثرية الجزائرية، و هذا ما يعد قصب السبق بالنسبة لهذا الناقد الذي أدرك هجران الدراسة و نقص العناية بهذا الفن، فخصه

بالدراسة والتأريخ والتصنيف والاستشهاد، ليكون بذلك مرجعا للطلاب والأكاديميين، وفاتحا بمجهود وإرادة نادرين بابا ظل عصيا على الجميع لعهود طويلة.

وقد قام الباحث بما قام به لأنه أدرك أن " النثر قد تطور أسلوبا وموضوعا ومحتوى " (1)، فاستطلع جيل الدارسين بامتياز بأفكار لا تخلو من الحداثة، بل أكاد أقول بأنه أول من خاض غمارالحداثة النقدية في الفن النثري الذي انفرد بدراسته ونقده وتصنيف مادته، ولسوف ندرك هذه الحقيقة حالما يعرف لنا الحداثة بمفهوم عصره بقوله:" ...فالحداثة التي نقصدها في النثر تعني أن هناك جديداً في الموضوعات وفي الأساليب والأشكال الأدبية، أو بتعبير آخر تعني الجديد في الصياغة و الشكل، و الواقع أن التجديد الذي نعنيه هو أن هناك تغيير حدث في لغة النثر وطريقة التعبير فيه منذ بدايته الاحتلال عام 1830 "(2)

أ/- تطور الأشكال و المضامين الأدبية

لم يكن من المصادفة أن ينفرد عبد الله الركيبي بريادة نقد النثر وفنونه في الجزائر لأنه ببساطة كان متتبعا لتطوره وراصدا للمنحى التجديدي الذي سلكه في مرحلة تاريخية حاسمة تحولت فيها الفنون النثرية من القوالب التقليدية إلى وجه معاصر لا تقليد فيه، سواء على مستوى الشكل أوالمضمون، وهذا ما يعلق به هو نفسه قائلا:" إن هذه الأشكال تطورت في القرن الحالي سواء في طريقة اللغة أوالتعبير، أو في الموضوعات والمضامين، بحيث طوعت اللغة حتى تعبرعن شخصية الكاتب من جهة وعن الواقع الجديد من جهة أخرى، لأن اهتمام الكاتب تغير، ولأن رؤيته تغيرت، فاستخدام الشكل القديم يعبر عن محتوى جديدا وفكرة جديدة "(3).

حديث عن مستقبل الكتابة النثرية شكلا وروحا عصريين يجعلان من الناقد يقف في منعرج الحداثة التي تزرع روح العصر حتى في الأشكال التقليدية، إنها المضامين العصرية التي تستدعي ناقدا لا يقل عنها حداثة كيما يتمكن من رصد الحركة التطورية لهذا الفن، و يواكب التطورات الشكلية والمضمونية التي تلحقها، وهذا ما فعله ناقدنا عندما قام بلفة كرونولوجية تعكس مواكبته لشتى التغيرات والتطورات الحاصلة على خارطة النثر الجزائري:" أما التطور الواضح فنلمسه في الأشكال الجديدة التي ظهرت منذ عصر الانبعاث و الإحياء، و منذ أن بدأت بوادر النهضة الحديثة سواء في الأدب أو في مجالات أخرى أوجدتها ظروف كثيرة سياسية واجتماعية، فكرية وحضارية(...) مما

ساعد على أن تظهر أنماط جديدة مثل المقال الأدبيو القصة القصيرة والمسرحية، والنقد الأدبي"(4). وهو ما جاء لينظر له، حيث نجده يقسم الإبداعات النثرية إلى عصور كأن يحدثنا عن عصر الانبعاث، والإحياء، والنهضة الحديثة الأمر الذي لم يشر إليه غيره.

ب/ منهج التأليف الموسوعي:

يشعر قاريء المؤلفات النقدية لعبد الله الركيبي أنه إزاء موسوعة أدبية، وحتى إن لم يعترف بذلك فسيحس لا محالة بالروح الموسوعية تسري في أوصال تلك الكتابات ، وهذا ما قصد إليه الناقد أصلا وسعى إليه، بل و أكده في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه **تطور النثر الجزائري الحديث** بقوله: " و قد حاولت أن تكون هذه الدراسة علمية متكاملة أطمح من ورائها إلى الإجابة عن بعض الأسئلة ، كما أطمح إلى أن يجد فيها القاريء العربي ما يساعده على معرفة ما أنتجه الكتاب الجزائريون في هذا المجال "(5).

ولعل هذا ما كان سببا في اعتماده المنهج التاريخي وتوسله أداة لتحقيب العصور الأدبية وأشكالها المتجددة وهو ما يؤكده صراحة في قوله: " الواقع أن المنهج الذي اخترناه هو منهج التحليل والاستعانة بالتاريخ إلى حد ما، وقد عرضنا(...) إلى الأشكال الأدبية التقليدية وكيف تطورت بعد أن طرأت عوامل جديدة أثرت في الأدب وفي الحياة بشكل عام، وعرضنا لأسلوب الكاتب وربطنا بين اللغة وبين هذا التطور(...) وقد حاولنا ما أمكن أن نلم بالألوان النثرية التي وجدت في النثر الجزائري واستخدمنا المنهج الذي ذكرناه (التاريخي) لأن غرضنا هو بيان تطور هذا النثر الذي نتتبع جزئياته وموضوعاته"(6) .

وبذا يتبوأ الطليعة في التأليف الموسوعي في تنظيره للنقد النثري الجزائري، وهو لا يتردد في تأكيد أحقيته بالسبق في فتح هذه البوابة الجديدة في التأليف النقدي، فيصف جهوده الجبارة على هذا المستوى قائلا:" ومع ما بذلناه من مجهود في الدراسة التي تعتبر الأولى من نوعها في النثر الجزائري الحديث فإنها ما زالت تحتاج إلى جهود أخرى من الباحثين"(7).

هذا هو دور الريادة التي تترك لدى القاريء انطباعا عن ثقل و جسامة مهمة من فتحوا الباب أمام الباحثين ومهدوا السبيل لكل محاولة لاحقة، و الشهادة أن الركيبي قد كفى الباحثين اللاحقين مشقة الجمع والتحقيق و التنقيب عن المادة من مصادرها القصية، ورغم ذلك نجده يبرر عدم كفاية جهوده بقوله: "لأننا ندرك أن إنتاجا كبيرا من النثر مازال

مخطوطا أو أنه في صحف ليست موجودة بالمكتبات الوطنية ، وقد كلفنـا هـذا البحـث مجهودات كبيرة في جمع مادته من مخطوطات أو من صحف أو من مراجع نادرة"(8).

لذلك لم يكن جامعا للمادة فحسب بل محققا فذا ومؤصلا نادرا في نقلها، فلا نتفاجـأ أبدا إذا لم نجد أثرا لبعض النصوص إلا في مؤلفاته، حيث نقلها لنا من مصادرها المفتقـدة الآن، وهذا ما يولي أعماله النقدية التأسيسية منزلة رفيعة وطليعية لدى أهـل الأدب مـن الباحثين والأكاديميين والنقاد، لأنها تحمل مشروع نظرية جدية يسعى صاحبها إلى تحقيقـه عبر جمع و تصنيف و تحليل الأنواع النثرية التي تشكل قوام هذه النظرية.

ج/ نظرية الأنواع النثرية عند عبد الله الركيبي : و قد قسمها إلى قسمين:

I)- أشكال نثرية تقليدية :

1/- الخطابة

والتي يأتي على تغطيتها و التأسيس لها منذ العصر الجاهلي في نسق كرونولوجي موسـع و صولا إلى عصرنا الحديث، طاويا في كل ذلك عصـور: صـدر الإسـلام، الأمـوي، العباسي، الأندلسي وصولا إلى جيل جمعية العلماء المسـلمين، ابـن بـاديس و البشـير الإبراهيمي وغيرهما، ليخلص إلى دراسة خصائص و مميزات خطبهم .

2/ - الرسائل:

ويقسمها بدورها قسمان من حيث أسلوبها ، تقليدي / تجديدي، ثم يشرع في تحقيـق بعض هذه الرسائل، ما يقوده في كثير من الأحيان إلى إعادة النظر في نسبتها ، و ينسـب أخرى مجهولة لأصحابها لأول مرة من كتابات الأمير عبد القادر ، أحمد بـاي ، محمـد الشاذلي القسنطيني، و رسائل نادرة أخرى دارت بين الثوار و قادة جيش التحرير .

3/ - أدب الرحلات:

ويبرز له أهمية بالغة كونه من أكثر الأشكال تطورا في تاريخ الجزائـر، بالإضـافة إلى اعتباره أحد أهم مصادر فن القصة، وقديما رأوا فيه " الفن الذي يبعد التهمة التي ترى أن الأدب العربي لم يعالج فن القصـة "(9) ويـأتي بأمثلـة نـادرة لمشـاهير الرحالـة الجزائريين، كابن الشريف، والورتلاني وغيرهما مع نصوص وقصص ومقطعات نـادرة تعكس تفرد البحث و أصالته .

4/- المقامات و المناظرات:

يذكر في هذا المقام أدباء مغمورين تؤكد شهاداتهم بأنهم ساقوا أحاديث تضاهي أو تفوق ما جاء به المويلحي صاحب حديث عيسى بن هشام كمحمد بن محـــرز الـــوهراني، هذا و قد قسم المقامة الجزائرية ثلاثة أقسام: 1- المقامة الأدبية الإصـــلاحية 2- المقامـــة الصوفية 3- المقامة الشعبية .

5/- القصة الشعرية:

جمع في هذا الجنس جمهرة من الفنون الشعبية تبويبـــا و دراســـة و نقـــدا، ســـواء الشعرية منها أو النثرية، بإرادة مصممة على إدراجها أكاديميا في برامج الجامعة، وهو ما حصل بالفعل مباشرة بعد ندائه المسموع في الساحة الأكاديمية. و قد قسمها هي الأخـــرى إلى ثلاثة أقسام: من حيث المؤلف و أسلوب التعبير و الموضوع:

- النوع الأول : السير الشعبية ، أو قصص البطولات الشعبية كعنترة بن شداد ، سيف بن ذي يزن ، أبي زيد الهلالي...الخ فيما يشبه أدب الملاحم و البطولات.
- النوع الثاني: قصص دينية و خرافية، و قصص الحيوان.
- النوع الثالث: قصص الجزائريين من حكام و ملوك، و أولياء صالحين.

II)- أشكال نثرية جديدة :

1/- المقال الأدبي : ذكر به كنوع أدبي دون أن يشأ الخوض في تفاصيله ، لأن هنـــاك حسبه من أوفى الحديث فيه ، لما رأى أنه لن يضيف جديدا إذا ما أعاد اجتـــرار مفهومـــه وخصائصه ، وشواهده.

2/- القصة القصيرة:

رغم أنه خصص لها جزءً هاما من كتابه **تطـــور النثـــر الجزائـــري الحـــديث** إلا أن الركيبي قد خص موضوع القصة القصيرة الجزائرية ببحث مستفيض كان محـــور كتـــاب طلائعي شغل المثقفين و الأكاديميين في البلاد العربية، و نفدت جميع أعداده في أقل مـــن سنة، و لم يدخل الجزائر إلا عدد يسير منها،آية على ريـــادة الكتـــاب،و أصـــالة مادتـــه وغزارتها،و إحكام منهجه و دقته ، حمل عنوان **:** " **القصة الجزائرية القصيرة**" و الـــذي يقول عنه: "... تلقفه الدارسون و القراء و احتفلوا به بصورة لم أتوقعها في الجزائر و في البلاد العربية، و أصبح المرجع الوحيد في القصة الجزائرية القصيرة "(10).

والكتاب مرجع لا غنى عنه لباحث في هذا المجال، أكان من جانب الشكل المنهجـــي الدقيق أومن جانب المحتوى الذي كان موسوعة تاريخية تأسيسية لفن القصة القصيرة فـــي الجزائر، من حيث النشأة والمؤثرات، أي خطواتها الأولى إلى النـــور، مـــرورا بتشـــكل صورتها الطبيعية، وتدرجها عبر التيارات والمذاهب الأدبيـــة، ومـــن أبرزهـــا التيـــارين الرومانسي والواقعي .

ولم يكتف الناقد بالتأريخ لهذا الفن بالعربية بل خاض غمار تأصيل القصة الجزائريـــة القصيرة المكتوبة بالفرنسية و تطورها ، وهو دليل ليس بالأخير عن نزوعـــه الموســـوعي في التأليف الذي لم يشأ أن يفرد جانبا من الموضوع بالدراسة دون الآخر،أو لغة كتبت بها القصة الجزائرية القصيرة دون الأخرى . فوضع بين أيدينا أنطولوجيا متكاملة فـــي هـــذا الفن تعد الأولى من نوعها في الجزائر و العالم العربي، و يعزى نجاح هذا العمـــل الهـــام بشكل كبير إلى جانبه المنهجي المبتكر، بل و الغير مسبوق .

لقد كان المنهج في هذه الدراسة مثالا محتذى في ما تلاها من الدراسات المماثلة سواء في الجزائر أوفي بقية البلاد العربية، وله المزية الكبرى في تهافت دور النشـــر العربيـــة على طبعه وإعادة طبعه ، يقول الركيبي معلقا على منهجه وفلسفته في تقنـــين مســـارات دراسة هذا الفن المعقد:" هناك صعوبة يتعرض لها الباحـــث فـــي القصـــة القصـــيرة و لا يتعرض لها بنفس القدر في الشعر، وهي المنهج الذي يدرس فيه إنتاج القصـــة القصـــيرة (...) وما وجد لا يعدو أن يكون إشارات قليلة لا تساعد الباحث على تلمس مـــنهج معـــين لها (...) وبالرجوع إلى هذا كله تحدد منهج هذه الدراسة، فاخترت لها المنهج الذي يجمـــع بين النقد والتاريخ ".

وقد يحتار الباحث في ماهية لماذية هذا الجمع النادر بين منهجي النقد والتاريخ فـــي دراسة واحدة، ولا يطيل الناقد حتى يبرر هذا المقصد موضحا بأن" التاريخ هنا ليس مقصودا لذاته، وإنما هو لبيان خط تطور القصة القصيرة ومسارها العـــام (...) لأن الأدب يتطـــور بتطور حياة الإنسان، والتاريخ يساعد على تحديد هذا التطور، أما المنهج النقدي فهو الاعتماد على النص وما يصوره من تجربة إنسانية، و يعبر عنه من مضمون وواقع معاش "(11).

لقد أراد الركيبي من خلال هذا المنهج التكاملي الذي لم يغادر في إحاطتـــه بتلابيـــب القصة الجزائرية القصيرة لا النشأة و ظروفها و عواملهـــا ،و لا المـــؤثرات و لا حتـــى المعوقات ، أن يسهم في رسم هوية هذا الفن العريق ، و هي آيـــة الموضـــوعية الخليقـــة

بالعملية النقدية التي لم يتوانى فيها عن ذكر ما سجله التاريخ في سيرورة هذا الفـن مـن سلبيات و سقطات أسهمت بدورها في تشكيل ملامح الهوية القصصية الجزائرية ،عازفـا عن السير في مضمار المميزات الفنية التقليدية المتحيزة .

3 /- الـــــــروايـــــة:

خصص لها الناقد فصلا كاملا في كتابه **تطور النثر الجزائري الحديث** مشيرا فيه جنوح الرواية الجزائرية إلى التعبير باللغة الفرنسية قبل السبعينيات ، أما البدايـة الحقـة للرواية الجزائرية العربية فكانت بعد السبعينيات ، و هي البدايات التي وصفها بالسـاذجة سواء في موضوعها أو في أسلوبها و بنائها الفني(12).

وتمثل للرواية المطولة بغادة أم القرى لأحمد رضا حوحو، و **الطالب المنكـوب** لعبد المجيد الشافعي ، و قد شكلت هذه المرحلة المولد الحقيقي للرواية الجزائريـة الـذي مثلته بامتياز: ما لا تذروه الرياح لمحمد عرعار، **ريح الجنوب** لعبد الحميد بن هدوقـة و روايتي الطاهر وطار: **الزلزال و اللاز.**

4/- المسرحية :

ينطلق الركيبي كباحث و مؤرخ و ناقـد مـن ترجيـع المـيلاد الأول للمسـرح الجزائري إلى سنة 1926 ، كما جاب المراحل التي مر بها المسرح الجزائـري بحثـا و توثيقا من لدن أساطينه من أمثال **محي الدين باش ترزي و جروة علاوة وهبي و رشـيد قسنطيني** ، متمثلا بالمسرحية التاريخية في نموذج مسرحية بلال للشاعر **محمد العيد**.

5/- النقد الأدبي:

وهو الفن الذي خصه الناقد بفصل معتبر من كتابـه السـابق ، و يعـرض فيـه لمناقشة قضية تقليدية/حداثية لا تموت،و هي علاقة الأدب بالنقد ، علاقة يستهلها حميميـة و يختمها جدلية، متعرضا على طول الرحلة الشائقة إلى مسائل جوهرية كمهمة الأديـب و وظيفة الناقد، منتهيا إلى علاقة تكاملية لازمة بينهما كما كان الحال لدى الشـعراء النقـاد الذين تعايش فيهما الشعر و النقد بامتياز من أمثال أحمد المجاهد الحسيني ،و محمـد بـن مصطفى المشرفي في محاوراتهما المشهورة و معاركهما الأدبية الشعرية السائرة (13).

و يختم حديثه بأزمة النقد الأدبي التي ليست شيئا آخر سوى أزمة الأدب ، و تتبع تطوراتها من الاستقلال إلى السبعينيات ،واقفا على مسبباتها و موانع التطور و معضـلات الحياة الأدبية و النقدية في تاريخ الجزائر .

ثانيا : من أجل نظرية في الشعر الجزائري

لقد خصص د/ عبد الله الركيبي رسالته للدكتوراه لموضـــوع " **الشـــعر الـــديني الجزائري** " تحت إشراف الدكتورة **سهير القلماوي**، و قد مثل هـــذا الموضـــوع الجديـــد منعرجا حاسما في تاريخ الدراسات النقدية للشعر ، و بالخصوص زاوية الشعر الـــديني الذي يعد الركيبي أول من خصه بدراسة من هذا الحجم في الجزائر ، وهو مجهود يضاف إلى سلسلة أعماله الطلائعية التي أشرنا إليها آنفا .

و ما يجعل الرجل جدير بهذه المكانة في طليعة مؤسسي النقد الجزائـــري هـــو فتحه لأبواب استعصت على سابقيه، أو لم يـــتم اكتشـــافها إلا بمجيئـــه كمجـــال تحقيـــق المخطوطات و جمعها و تصنيفها وتصحيحها و نسبتها لأصحابها ، و لم يكن هذا الجهـــد بالأمر اليسير ، بل أكاد أقول أنه ليس من اختصاص الباحث ، خاصة إذا علمنا أن" كثيـــرا من المخطوطات،أو أنها دوريات يصعب العثور عليها إلا بجهد و مشقة كبيرين،و أن مـــا طبع منها لم يتوفر نسخه بشكل يسهل للباحث عمله ، و منها أن المخطوطات نسخها أفراد غير مؤهلين ثقافيا، فهم لا يراعون قواعد اللغة و العروض ،الأمر الـــذي يثيـــر مشـــكلة للباحث، إذ عليه أن يقوم بدور المحقق و المؤرخ و الناقد جميعا ، و بوجه خـــاص تلـــك الدواوين أو القصائد المخطوطة التي لا يوجد منها أكثر من نسخة "(14).

وكان مكمن التجديد في هذا العمل النقدي الهام متمثلا في المنهج الـــذي يـــؤطره، وهو غير مسبوق في هذا النوع من الدراسات النقدية، إنه **المنهج التاريخي النقدي** الـــذي يعنى بالتيار أكثر مما يعنى بالقائل نفسه، وهو مع ذلك لم يتجاهل الشـــاعر، مـــن حيـــث تفريقه بين أسلوب شاعر وآخر في تناولهم للموضوع ، ذلك أن الغـــرض الأول والأخيـــر كان منصبا حول رصد الظاهرة الأدبية (الشعر الديني) الموحدة بين عشرات الشعراء فـــي الموقف و الاتجاه العام . (15)

و قد عني الناقد باستجماع ما يمكن أن يشكل مدرسة شعرية جزائرية عبر عـــدة تيارات سنحاول تلخيص أهمها فيما يلي:

I) - الشعر الديني الصوفي:

الذي يتجلى عبر مظاهر عدة أهمها:

1/- المدائح و التوسلات:

وهو أسلوب قديم في الشعر الإسلامي الذي يخرج الذي خرج الشاعر الجزائـــري عن ذائقته، و لاسيما في الأسلوب والموقف، و يكمن جهد التأصيل هنا في عناية الركيبـــي بعناصر صنعت تميز الشعر الديني الجزائري والمتعلقة أساسا بالبيئة وآثارها فـــي ذيـــوع غرض المدائح.

كما فرق في هذا الغرض بين الشاعر الصوفي و المصلح، مـــن حيـــث أن الأول يعنى بمدح الجمال والفناء فيه معرفة وكشفا تجاه ذات النبي صلى الله عليه و سلم، واتباع معارجه إلى خالقه، والثاني ينفرد بوصف الجهاد وأثره في الدفاع عن الإســـلام، و ذكـــر مآثر أهل البيت، والصحابة ، والتابعين . (16)

2/- التصوف الخالص:

وهو ربط للصلة بين الشعر الصوفي الجزائري و التراث الصوفي الإســـلامي ، بالإضافة إلى ما اعتلقه من تيارات أجنبية و كان في كل ذلك مفســـرا و شـــارحا لعديـــد المصطلحات و الرموز الصوفية التي درجت في معجم الشاعر الصوفي الجزائـــري فـــي ابتهالاته كالكشف ،و المعرفة،و الفناء، و المشاهدة، و وحدة الوجود ... و شـــرحه ذلـــك المعجم بمفهوم المتصوف الجزائري لا بالمفهوم الشائع في التراث الصوفي . (17)

ويخلص إلى إفراد الشعر الديني الملحون بفصل خاص، مناقشا فيه أصالة هـــذا الفـــن وزخمه التاريخي والأسطوري، وثرائه الثقافي، ودوره فـــي دفـــع عجلـــة الحيـــاة الثقافيـــة الجزائرية، منهيا هذا الباب برسم معمار شكلي للشعر الصوفي الجزائري، وهو عمل لا يخلو من الطلائعية في التنظير لهذا النوع الشعري المتأصل في الثقافة الجزائرية، معمار يحترم فيه تدرج الأشكال وتطور المفاهيم وتناتجها في صورة تراتبية بنائية تدخل لأول مرة النقد الجزائري مجال النمذجة البنيوية في التصنيف والتحقيب في دراسة الشعر وتأصيل خصائصه.

II) - الشعر الديني الإصلاحي :

و يتفرع بدوره إلى أقسام دقيقة فصلها الناقد في الخطوات التالية :

1) - الشعر المرتبط بالفكر الإصلاحي :

و هو المرتبط أساسا بردود الأفعال المناهضة للسياســـات الاســـتعمارية ،و الـــذي أخرجته إلى الوجود فكرة الإصلاح الديني و الثقافي ، و تعدد وسائل الدعوة إلـــى الجهـــاد وتقصي أبعاده الدينية و ترسيخها لدى طبقات الشعب الدنيا ، و هي دعوة ملحة للعودة إلـــى

الكتاب والسنة والتشبث بهما، مما فجر صحوة سلفية واسعة في تلك الطبقات، الشيء الـذي أنشأ نوعا من الصراعات البينية في صفوف الإصلاحيين وخصوصا ضد معتنقي الطرقيـة التي يروج لها الاستعمار بكل وسائله، بالإضافة إلى مهاجمة المصلحين للمتصوفة، مما أفرز ما يشبه المعارك الأدبية أو شعر النقائض بين تلك التيارات المتصارعة، و كان لهذا الصراع نتائج جمة في تطور الشعر الديني رغم تداعياته السلبية على العمل الإصلاحي المنشود.(18)

2/- تطور الشعر الإصلاحي :

و هو ما ختم به الناقد كتابه الطلائعي المؤرخ و الناقد لظـاهرة الشـعر الـديني الجزائري التي أنهاها بالوقوف على مظاهر تطورها ، و ما لحقها مـن مسـائل فنيـة ، كوظيفة الشعر لدى جمهور المصلحين، و معوقات هذا التطور من زحف الثقافة الغربيـة التي أوهنت القرائح الشعرية نظرا للازدواج الثقافي و اللغوي الذي انعكس سلبا على ثقافة الشاعر المنزوي في بيئة تخلو أو تكاد من النقد و النقاد .

ليحدد في خطوة لاحقة مواضع ذلك التطور حاصرا إياها في عنصري المضمون و الموضوع، دون أن يطال ذلك التطور الجانب الأسلوبي الذي يتبع ثقافة الشـاعر التـي أوهنتها العوامل السالفة. ومع ذلك فلم تخل الحركة التطورية في هذا الشعر من إيجابيـات تدفع عجلة ازدهارها كدخول التيارات الرومانسية والرمزية والواقعية إلى الساحة الثقافيـة الشعرية مضفية عليها طابعا جماليا، وموضوعات جديـدة كـالمرآة والحريـة والطبيعـة والثورة، عوامل تسهم في إيقاظ همة المجتمع الراكد، ونقد العادات والتقاليد البالية، والربط بين الجزائر والأمة العربية الأم، ونمو دوافع القومية و تأججها عبر هذه الأغراض التـي سادت الأدب العربي في العصر الحديث. (19)

<u>ثالثا : نحو تأسيس مدرسة نقدية أدبية جزائرية</u>

من أجل أي تأسيس لابد من تساؤل بل تساؤلات حول الإمكانات المتوفرة للبنـاء، لذلك كانت تساؤلات عبد الله الركيبي تساؤلات مؤسس يستجدي عصـره الأدبـي وبلـده العربي ملامح مدرسة ما لأدبه، ذلك أن العلوم الإنسانية نفسها ما هي إلا سـؤال، وكـان السؤال الجوهري الذي أقام عليه الركيبي مشروع مدرسة نقدية جزائريـة يتبلـور حـول وجود " مجموعة من الأدباء والشعراء والقصاص اعتنقوا مذهبا أدبيا معينا والتفوا حـول شعارات أدبية، مذهبية، جمالية، وفكرية معينة، فوضعوا لهذه المدرسـة قواعـد وأسسـا محددة، وعبروا عنها في إنتاجهم وأدبهم، وأصدروا بيانا(...) يوضح قناعـاتهم الخاصـة تجاه جملة من المسائل الأدبية التي تتصل بالشكل و المضمون شأن دعـاة المدرسـة(...) وهل هناك رؤية للكون والأدب والحياة جمعت بين الأدباء الجزائريين علـى الأقـل فـي

العصر الحديث؟ و ماهو الأسلوب الذي يعبر عن رؤيـتهم ويمكـن أن يصـنع إنتـاجهم ومعتقداتهم بصيغة خاصة تجعل أدبهم خاصا ومستقلا عـن الأدب العربـي، ولعـل فـي الأسئلة السابقة ما يشير إلى مفهوم المدرسة ". (20)

إنها تساؤلات شاقة على يطرح مستعصية على من يجيب ،و أي جرأة تلك التـي حملت رجل علم على استنفار أهل الأدب من أمته لما التأمت لديه جملة مـن المعطيـات جعل منها مقومات لمدرسة أدبية آمن بتحققها فخرج جاهرا بدعوته إلى معشر المثقفـين ، و يالها من تساؤلات مضنية يشقى بها الإنسان .

يخوض الركيبي دعوته نحو تحقيق هذا الحلم الأثير، مقيما مقارنـات بـين آداب الأمم و مدارسها، جاعلا من ظروف الجزائر الخاصة التي كابدها كمثقف نقطة الانطـلاق والتميز، والتقارب والتجانس في الإبداع كرابط بين المثقفين، تقارب يسمح بإنشاء مدرسة نقدية أدبية جزائرية تقارن بكل المدارس الإقليمية المحتفلة بتميزها وخصوصيتها، رغم أن الأدب الجزائري لن يفقد دوره كعضو جوهري مهما اختلف عن بقية أعضاء جسد الأمـة العربية ولن ينفصل عنها :" فبقدر ما يضيف الأدب الجزائري إلى الأدب العربي بقدر مـا يسهم في تطوره وإغنائه بالتجربة، فيغذيه بخبرات جديدة في الرؤية والشكل والمحتـوى، وبالتالي يثري الأدب العربي والأدب الإنساني، وهي قيمة التي ستبقى للأدب عندنا وعنـد غيرنا، وهذا ما يميز أدبا عن آخر"(21).

رابعا : نحو منهج نقدي عربي لدراسة الأدب الجزائري:

ألح عبد الله الركيبي في السنوات الأخيرة عبر منتديات أدبية و ثقافية عدة عبـر جامعات الوطن (العاصمة – عنابة خاصة) على ضرورة طـرح قضـية شـائكة تتعلـق بالمنهج النقدي للدراسات الأدبية الجزائرية الآخذة في التطور كما و نوعا فـي السـنوات الأخيرة بشكل ملفت ، نقدا و تحليلا، و تأريخا ،و عرضا ، و قد آن الأوان حسـبه كـي نحدد نظرتنا في هذا المجال " كي نضع دراساتنا في مكانها المناسب من الحركـة النقديـة العربية و المعاصرة ، و حتى نبحث باستمرار عن المنهج الملائم ".(22)

يطرح الناقد ما يطرحه بلهجة واثقة بالنظر إلى ذلك الكم الهائل مـن الدراسـات المحلية والعربية التي تناولت الأدب الجزائري في شتى فنونه، والتي اطلع علـى بعضـها إن إشرافا وإن مناقشة، وذلك النقاش الأدبي الذي خاضته الصحف العربية بشأنه، والمـنم عن ثقل وزن هذا الأدب في الميزان الإبداعي العربي، وبات من الضروري لهـذا الأدب العظيم من نقد خاص به يوفيه حقه من الدراسة .

ومن هنا بزغت فكرة تأسيس منهج نقدي خاص بالأدب الجزائـري فـي ذهـن الركيبي، الذي هدف أولا وأخيرا إلى خط معالم الطريق التي سيسير فيها نقدنا المنهجـي، مستشرفا في كل ذلك أفقا و سبل أخرى، و بدائل إبستيمولوجية يمكن اعتمادهـا لمسـتقبل النقد الجزائري، بعدما استعرض في خطوة سابقة عديد المناهج النقديـة التـي تدارسـت الأدب الجزائري عبر مراحله المختلفة، وصولا إلى المرحلة الراهنة التي تحـدث بحريـة مطلقة في الكتابة والنقد، مما ساقه إلى بعض الحقائق والقضايا التي يفرضها العصر .

وهو ما جعله يؤكد على ضرورة تحرير المبدع و الناقد بشـرط أن نطالـب هـذا الأخير بمنهج واضح ، و قواعد معروفة حتى نتفادى السقوط في فوضى النقد أو فوضـى الأدب، طارحا بديله الذي كان ها جسه من البداية والذي خلص إليه بعد تجارب طويلة في الميدان، والمتمثل في اقتراح الأخذ بـ**المنهج النقدي الجمالي الاجتمـاعي.**(23) منهج يلاحظ في تشكيله نزوعا واضحا إلى التكاملية في التناول، ولعله الأنسب لأدب المرحلة الراهنة لما كان يختص بالتعبير عن تفرد الأديب ومزاجه، ووعيه وثقافته، لأن هذا الفرد المعاصر يحيا في لحظة حضارية لها مستواها الفكري والثقافي والاقتصادي والاجتماعي المختلف.

لقد شعر الناقد الطلائعي بالحاجة الملحة للتفكير في مناهج نقديـة جديـدة خليقـة بأجيال الأدب الجزائري القادمة ، و الحياة الأدبية الجزائرية الحافلة بالمتغيرات .

عودة هي للتجديد والمواكبة، ورؤية دقيقة لا تنقصها الحداثة، تسمو بصاحبها إلـى درجة المؤسسين الطليعيين لآداب وثقافات أممهم، ذلك أنه أدرك استحالة بلوغ أية غاية مثلى أوهدف سام دون توسل منهج دقيق وواضح المعالم، لذلك كـان التنظيـر النقـدي لعبـد الله الركيبي متجها تماما إلى المستقبل من خلال التزامه بالدعوة إلى مسألة المنهج وتجديده فـي كل منتدى ومناسبة أدبية و ثقافية، مذكرا في كل تواصل له مع أجيال المثقفين بأن سر دعوته عود على بدء هو عظمة الأدب الجزائري على تنوع فنونه، طارحا علـى السـاحة الأدبيـة الجزائرية سؤالا طلائعيا أصيلا من قبيل: " **لماذا لا يكون لنا منهج مستقل نابع من أصالتنا وخصوصية أدبنا، منهج يستفيد من تراثنا النقدي العربي الأصيل و مـن التـراث النقـدي الإنساني** ".(24) ولا يمكن لصاحب هذا السؤال إلا أن يكون أحد عظماء الأدب الجزائـري ونقده الذي أرساه على سكته السائرة قدما..

الهوامش:

(1)- د/ عبد الله الركيبي : تطور النثر الجزائري الحديث ،المؤسسة الوطنية للكتـــاب الجزائـــر، الدار العربية للكتاب . القاهرة .الطبعة الثانية 1983 ص5.

(2)- نفسه ص 5

(3)- نفسه ص 6

(4)- نفسه ص 8

(5)- نفسه ص 7

(6)- نفسه ص 7

(7)- نفسه ص 8

(8)- نفسه ص 8

(9) – شوقي ضيف : فنون الأدب العربي – الفن القصصي ، دار المعارف بمصر1956ص6.

(10)- عبد الله الركيبي: القصة الجزائرية القصيرة،المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائـــر- الـــدار العربية للكتاب -القاهرة 1983 ص9.

(11)- نفسه ص 6 .

(12)- تطور النثر العربي الحديث ص 199

(13)- نفسه ص 241.

(14)- عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث ،الشركة الوطنية للنشـــر والتوزيـــع – الجزائر- الطبعة الأولى 1981 ص 6 .

(15)- نفسه ص 8 (بتصرف).

(16)- نفسه ص 45 و ما بعدها.

(17)- نفسه ص 240 و ما بعدها.

(18)- نفسه ص 560 و ما بعدها.

(19)- نفسه ص 631 و ما بعدها.

(20)- عبد الله الركيبي :الشعر في زمن الحرية (دراسات أدبية و نقديـــة)،ديـــوان المطبوعـــات الجامعية - الجزائر 1990 ص 170

(21)- نفسه ص 177.

(22)- نفسه ص 180.

(23)- نفسه ص 185.

(24)- نفسه ص 185.